المتحنفون وأشعارهم

الدكتور أحمد كوتي

من ومضات النّور التي تألقت من خلال الظّلمات التي طبّقت حياة العرب قبل الاسلام ظاهرة تسمّى بالتّحنّف . وهي ماكان يميل إليه بعض الرّجال من العرب الجاهليين من عبادة الله وحده دون أن يشركوا به شيئا . وذلك أن الأحوال السيّئة التي كانت سائدة في المجتمع العربي الجاهلي جعلت بعض النفوس في جزيرة العرب تثور على ذلك النظام الفاسد القائم على الشرك وعبادة الأوثان ، وألقت في طبائعهم السليمة اشتياقا الى حياة أرقى ومثل أعلى ممّا هم فيه من العقيدة والدّين ونظام الحياة . وهذا القلق الرّوحي وتفكّرهم في طريق الخلاص منه أوصلاهم في آخر الأمر الى عقيدة تشبه عقيدة التوحيد في الاسلام ، فعزموا على أن يتركوا عبادة الأوثان والأصنام ويعبدوا الله الواحد الأحد الذي لاشريك له . (ولا يعني هذا أنهم اهتدوا الى معرفة صحيحة لصورة التوحيد النهائية التي جاء بها محمد ﷺ فيما بعد . وانّما ادركوا فكرة غامضة لعقيدة التوحيد بعقلهم وتفكّرهم بغير مساعدة من هداية كتاب سماويّ .)

● [لعل من المستحسن العودة الى بحث « الحنفاء » في كتاب المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام للدكتور جواد علي (ط ٣ ، ١٩٨٠ م) ٦ : ٤٤٩ ـ ٥١٠ ، والى مقالة « شعر الاحناف » للدكتور عادل البياتي ، المنشورة في مجلة آداب المستنصرية (العدد الخامس ١٩٨٠ م) : ٥٣١ ـ ٥٩٤ / لجنة المجلة] .

وانّما سمي هذا اللون من العبادة بالتّحنّف نسبة الى « الحنيفية » شريعة ابراهيم عليه السلام أبي الرّسل الذي وحد الله ولم يشرك به شيئاً . والحنيفية من الحنيف (جمعه الحُنَفَاء) . تكرّر ورود هذا اللفظ في القرآن الكريم للدّلالة على أهل الدين الحقّ الصّحيح . مثال ذلك ما ورد في سورة يونس الآية ١٠٥ ، وسورة الحجّ الآية ٣١ وسورة الروم الآية ٣٠ وسورة البيّنة الآية ٤ ، وهو ينطبق على ابراهيم خاصّة لأنّ ملّته تمثل عبادة الله الخالصة كما يدلّ عليه ماورد في سورة آل عمران الآية ٦٧ : ﴿ ماكان ابراهيم يهوديّا ولا نصرانيّا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين ﴾[١] .

وكان من العرب كثير من « المتحنّفين » ، أو « الحنفاء » أي الذين كرهوا عبادة الاصنام والاوثان ومالوا الى الإيمان بوجود الاله الواحد المعبود . واكثرهم كانوا شعراء فقالوا اشعارا بينوا فيها ماموالوا اليه من العقائد والأخلاق والقِيَم والمُثل وهي تلقي ضوءاً ساطعاً على نفسيّة هؤلاء الحنفاء وازمتهم النفسيّة في تلك الأوضاع الفاسدة التي كانت تحيط بهم ، وتطلّعهم الى الخلاص منها والوصول الى عقيدة ودين وقِيَم صحيحة تطمئن بها نفوسهم القلقة .

وفي مقدمة المتحنفين في الجاهلية أربعة نفر من قريش ، وهم ورقة بن نوفل[٢] وعبيد الله بن جحش[٣] وعثمان بن الحويرث[٤] وزيد بن عمرو[٥] فكره هؤلاء ماكان عليه مواطنوهم من الشرك وعبادة الأوثان فاجتمعوا وتواطؤوا على رفض الوثنية وعلى أن يضربوا في البلدان يلتمسون « الحنيفية » دين ابراهيم[٦] .

ورقة بن نوفل

فأمّا ورقة بن نوفل فتنصر واستحكم في النصرانيّة . وتعلم كتب أهل الكتاب . وكان يكتب الكتاب العبراني فيكتب بالعبرانية من الانجيل ماشاء أن يكتب(٧) ولعلّه عرف من مراجعة الكتب المقدّسة أنّ النبيّ المنتظر سيبعث في العرب فكان ينتظر ظهور هذا النّبيّ بكلّ ولوع واهتمام . وتدلّ على هذا أبيات قالها حينما أخبرته خديجة رضي الله تعالى عنها بالعجائب التي شاهدها غلامها ميسرة على شخص النبي ﷺ في أثناء رحلته الى الشام قبل مبعثه(٨) فيتحدث في أول الشعر عن انتظاره لبعثة النبي المنتظر بقلق واهتمام :

لججتُ وكنتُ في الذكرى لجوجا   لهمٌّ طالما بعث النّشيجا(٩)
ووصف من خديجة بعد وصف   فقد طال انتظاري ياخديجا
ببطن المكّتين على رجائي   حديثك أن أرى منه خروجا(١٠)

ثم يذكر ما أخبرته خديجة من تَنَبُّؤِ الرّاهب النسطوري أن محّمدا سيبعث نبيّا(١١) :

بما خبّرتِنا من قول قَسٍّ   من الرّهبان أكره أن يعوجا
بأن محّمدا سيسود فينا   ويخصم من يكون له حجيجا
ويظهر في البلاد ضياء نور   يقيم به البريّة ان تموجا(١٢)
فيلقى من يحاربه خسارا   ويلقى من يسالمه فلوجا(١٣)

ثمّ يتمنّى ورقة أن لو كان حيّا حين يبعث محّمد لكان أول من يدخل في دينه على الرّغم من قريش :

فياليتي اذا ما كان ذاكُمْ   شهدتُ فكنتُ أوّلهم ولوجا
ولُوجاً في الذي كرهت قريش   ولوعجّت بمكتها عجيجا(١٤)

لورقة شعر آخر في هذا المعنى رواه يونس بن بكير عن ابن اسحاق[١٥] ، ولكن ابن هشام لم ينقل هذا الشعر .

ونرى بعد سنوات هذا أن محمدا ﷺ يتلقى الوحي الالٓهي من جبريل عليه السلام في غار حراء ويجيء الى زوجته خديجة خائفاً ويخبرها بما رأى وسمع فتذهب الى ورقة بن نوفل وهو ابن عمّها وتخبره بما أخبرها به زوجها فيقول ورقة « .... لقد جاءه النّاموس الأكبر الذي كان يأتي موسى وإنّه لنبيّ هذه الأمّة » ثم يلقى ورقة محمدا ﷺ نفسه بالكعبة ويكرر له مّا قاله لخديجة ويعده أنّه ان ادرك زمنه لينصرنّه نصراً مؤزرا[١٦] ولكنّه لم يلبث أن مات فلم يستطع أن يظاهر النبي ﷺ حين كان يعذّبه ﷺ واصحابه المشركون كما وعده .

على أن هناك رواية عن عروة[١٧] تفيد أن ورقة بن نوفل عُمّر بعد مبعث النّبي ﷺ حتّى شهد تعذيب بلال بن رباح رضي الله عنه برمضاء مكة وحاول أن ينهى المعذّبين عن ذلك فقال في ذلك ابياتا منها :[١٨]

لقد نصحت لأقوام وقلت لهم أنا النذير فلا يغرركم أحد
لاتعبدنّ الهـا غير خالقكم فإن أبيتم فقولوا بيننا حَدَدُ

ولكنّ هذا الحديث ضعيف لا يعوّل عليه لأنّ ورقة مات بُعَيْدَ مبعث النّبيّ ﷺ ، أوْ قبله على رواية ، وبلال ما عُذّبَ الاّ بعد أن أسلم فكيف يستطيع ورقة أن يشهد تعذيب بلال ؟ والى جانب هذا ان هذا الحديث ضعيف الاسناد لأنّه مرسل وعروة تابعيّ لم يدرك عصر النّبوة فإذا كان هذا الخبر غير صحيح فالشعر المنسوب الى ورقة في هذه المناسبة ايضا غير موثوق به .

ومن اشعار ورقة ابيات[١٩] قالها في رثاء صديقه زيد بن عمرو الذي تقدم ذكره لمّا مات مقتولا كما سيأتي ، وفيها يهنئ زيدا على ترك عبادة الاوثان وتوحيده لله وطلبه للدّين الصحيح واستحقاقه لثواب الله . وهي :

رشدت وانعمت ابن عمرو وانّما تجنبت تنّورا من النّار حاميا
بدينك ربّاً ليس ربّ كمثله وترْكك اوثان الطواغي كما هيا
وادراكك الدّين الذي قد طلبته ولم تك عن توحيد ربّك ساهيا
فأصبحتَ في دار كريم مُقَامها تعلّل فيها بالكرامة لاهيا
تلاقي خليل الله فيها ولم تكن من النّاس جبّارا الى النّار هاويا
وقد تدرك الانسانَ رحمةُ ربّه ولو كان تحت الأرض سبعين واديا

عبيد الله وعثمان

وامّا عبيد الله بن جحش فأقام على ما هو عليه من الالتباس حتى أسلم ثمّ هاجر مع المسلمين الى الحبشة ومعه امرأته أمّ حبيبة بنت أبي سفيان مسلمةً وبعد ان قدم الحبشة تنصّر وفارق الاسلام حتى هلك هنالك نصرانيا[٢٠] .

وأمّا عثمان بن الحويرث فقدم على قيصر ملك الروم فتنصّر وحسنت منزلته عنده ،[٢١] وله مع قيصر أخبار يطول شرحها . وقيل انه مات بالشام مسموما سمّه عمرو بن جفنة الغساني الملك[٢٢]

على أننا لا نجد لهما شعرا نستدلّ به على تحنّفهما.

زيد بن عمرو

وأما زيد بن عمرو فالأخبار التي وردت في كتب التاريخ والسّير والأدب عن تحنّفه والتماسه لدين ابراهيم كثيرة جدّا .

وزيد هذا هو والد الصحابي الجليل سعيد بن زيد الذي هاجر الى المدينة مع من هاجر من المسلمين وشهد غزوة أُحد ، وهو الذي أسلم عمر بن الخطاب في بيته فقد كان زوج أخته فاطمة ، وعمر بن الخطاب هو ابن عمّ زيد بن عمرو .

فارق زيد بن عمرو دين قومه واعتزل الأوثان والميتة والدم والذّبائح التي ذبحت لغير الله ، ونهى عن قتل الموءودة فكان أوّل من عاب على قريش ماهم فيه من عبادة الأوثان[٢٣] وكان يقول لهم : « يا معشر قريش ، والذي نفس زيد بن عمرو بيده ما أصبح منكم أحد على دين ابراهيم غيري » . ثم يقول : « اللهم لو أنّي اعلم أيّ الوجوه أحب اليك عبدتُك به ولكني لا أعلمه » ثمّ يسجد على راحته .[٢٤]

لما أعلن زيد عداوته لدين قومه أخرجوه من مكة ومنعوه من أن يدخلها وكان أشدّهم عليه الخطاب بن نفيل عمّه وكان يغري بزيد شباب قريش وسفهاءهم[٢٥] ثمّ خرج من مكة يلتمس دين ابراهيم عليه السلام فجال بلاد الشام حتى أتى البلقاء فطلب الحق من يهود الشام ونصاراها وناقش مع رهبانهم وعلمائهم أمور الدّين ، ولكنّه لم يحصل منهم ما يسكن نفسه المضطربة التي كانت تتشوّق الى دين ابراهيم الأصيل . ثمّ أراد أن يرجع الى مكة ، ولكنه لمّا وصل الى أرض لخم (ويقال أرض جذام) عدوا عليه فقتلوه[٢٦] وفي رواية أن زيد بن عمرو كان بالشام فلمّا بلغه خبر النّبي ﷺ اقبل يريده فقتله اهل ميفعة[٢٧] (ميفعة قرية من أرض البلقاء من الشام) .

إن زيدا هذا هو الذي قال عنه رسول الله ﷺ : « يأتي يوم القيامة أمّة وحده »[٢٨]

وإلى زيد بن عمرو تنسب أشعار كثيرة منها شعره في توحيد الله وفراقه لدين قومه وبطلان الشرك . وإليكم تلك الأبيات كما رواها ابن هشام :[٢٩]

أربّا واحداً أم الف ربّ أدين اذا تقسمت الأمورُ
عزلت اللاّت والعزّى جميعا كذلك يفعل الجلد الصّبور
فلا العزّى أدين ولا ابنتيها ولا صنَمَيْ بني عمرو أزور
ولا هُبَلاً أدين وكان ربّا لنا في الدّهر اذ حلمي يسير
عجبت وفي الليالي معجبات وفي الأيام يعرفها البصير
بأنّ الله قد أفنى رجالا كثيرا كان شأنهم الفجور
وأبقى آخرين ببرّ قوم فيربل منهم الطفل الصغير[٣٠]
وبينا المرء يفتر ثاب يوما كما يتروّح الغصن المطير[٣١]
ولكن أعبد الرّحمن ربّي ليغفر ذنبي الرّب الغفور
فتقوى الله ربّكم احفظوها متى ما تحفظوها لا تبوروا
ترى الأبرار دارهم جنان وللكفّار حاميةٌ سعيرُ
وخزيٌ في الحياة وإن يموتوا يلاقوا ما تضيق به الصدور

وهناك شعر آخر لزيد في هذا المعنى في ثمانية عشر بيتا رواها ابن اسحاق[٣٢] ولكنّ ابن هشام يلاحظ أن هذا الشعر لأميّة بن أبي الصّلت الا بعض الأبيات منه . والأبيات التي أثبتها ابن هشام لزيد بن عمرو هي مايلي :

الى الله أهدي مدحتي وثنائيا وقولا رصينا لايني الدّهرَ باقيا[٣٣]
الى الملك الأعلى الذي ليس فوقه إلّه ولا ربّ يكون مدانيا
حنانيك انّ الجنّ كانت رجاءهم وانت إلاهي ربّنا ورجائيا[٣٤]

فربّ العباد ألق سيبا ورحمة ... عليّ وبارك في بنيّ وماليا[٣٥]

ومن الأشعار التي تنسب الى زيد بن عمرو هذه الأبيات في توحيد الله وعبادته :[٣٦]

وأسلمت وجهي لمن اسلمت ... له الأرض تحمل صخرا ثقالا
دحاها فلمّا رآها استوت ... على الماء أرسى عليها الجبالا
واسلمت وجهي لمن اسلمت ... له المزن تحمل عذبا زلالا
اذا هي سيقت الى بلدة ... أطاعت فصبّت عليها سجالا

وقد تقدم ذكر الأبيات التي قالها ورقة بن نوفل في رثاء زيد بن عمرو لمّا مات مقتولاً .

ويبدو أن الرّواة قد خلطوا بين شعر زيد بن عمرو وشعر أُميّة بن أبي الصّلت . وربّما وقع هذا الارتباك بسبب المشابهة بين الرّجلين من حيث الآراء والأفكار والمعاني والألفاظ والتعابير في شعرهما . ومع هذا فإن ما صحّ من شعر زيد بن عمرو يلقي ضوءاً وافرا على شخصيته القويّة البارزة كرجل باسل ذي عقل حُرّ أعلن الحرب لأول مرّة على الشرك وعبادة الأوثان وسائر المساوئ الأخلاقيّة والروحيّة والاجتماعيّة التي كانت تسيطر على حياة العرب كلها في العصر الجاهلي .

أميّة بن أبي الصّلت

إن كان هؤلاء متحنّفي قريش فكان هناك في قبائل العرب الأخرى أيضا متحنّفون ومنهم أُميّة بن ابي الصّلت الذي أفاضت الكتب بأخباره وأشعاره وهو من قبيلة ثقيف بالطائف ، وكان رجلا مفطورا على التّديّن وقد اتّخذ لنفسه سبيل الهداية والرّشد في الجاهليّة ، وزهد في الدّنيا

ولبس المسوح فآمن بوحدانيّة الخالق ، وذكر في شعره اموراً دينيّة وحرّم على نفسه الخبائث من الأفعال .

وكان اميّة معدودا من شعراء الجاهلية البارزين فيقول ابن سلاّم إنّه أشعر شعراء الطآئف[٣٧] ويقول أبو عبيدة « اتّفقت العرب على أن أشعر أهل المدن اهل يثرب ثمّ عبد القيس ثمّ ثقيف وأن أشعر ثقيف أمية بن ابي الصّلت »[٣٨]

إن أشعار أميّة بن أبي الصلت حافلة بالآراء والافكار الدينيّة كالايمان بالله تعالى والتوحيد والبعث والحساب والجزاء . وليس هذا فقط بل يورد في أشعاوه معاني والفاظاً وتعابير لم تكن العرب تعرفها فيقول ابن سلاّم : « وكان امية كثير العجائب يذكر في شعره خلق السّماوات والأرض ويذكر الملائكة ويذكر من ذلك ما لم يذكره احد من الشعراء[٣٩] » فيبدو أن أمية كان عالما بغير العربية فاطلع على كتب القدماء وخصوصا التوراة . فلعلّ هذا سبب ادخاله في شعره أشياء لا تعرفها العرب . ومن الألفاظ الغريبة التي أوردها في شعره « ساهور » وذلك في قوله . « قمر وساهور يسلّ ويغمد » وكان يسمّي الله عزّوجلّ في شعره « السليطط » فقال : « هو السليطط فوق الأرض مقتدر » وسمّاه تعالى في موضع آخر « التغرور »[٤٠] فلم يستطع علماء اللغة أن يفسّروا هذه الألفاظ تفسيرا مقنعا ، فيرى جرجي زيدان أن كلمتي « السلطيط » و « التغرور » اقتبسها أميّة من الحبشيّة أوْ صاغها على صيغ تلك اللّغة .[٤١]

وإنّه ايضا يذكر في بعض قصائده حوادث التّوراة كخراب سدوم وقصة إسحاق وأبراهيم[٤٢] .

ومن الأشعار الكثيرة التي تُروى لأميّة أبياتٌ تدلُّ على ايمانه بالله ربّ العالمين ، وانتظاره للنّبيّ المنتظَر وهي :

الحمد لله ممسانا ومصبحنا ... بالخير صبّحنا ربّي ومسّانا
ربّ الحنيفة لم تنفد خزائنها ... مملوءة طبّق الآفاق سلطانا[٤٣]
الا نبيّ لنا منّا فيخبرنا ... ما بعد غايتنا من رأس مجيانا[٤٤]
بينا يربيننا آباؤنا هلكوا ... وبينما نقتني الاولاد أفنانا
وقد علمنا لو انّ العلم ينفعنا ... أنْ سوف يلحق أخرانا بأولانا

وقيل إنّ رسول الله ﷺ لمّا سمع هذه الابيات قال :-« ان كاد اميّة ليسلم » وفي رواية أنه ﷺ قال : « آمن شعره وكفر قلبه »[٤٥]

وروي لأميّة شعر قاله في شأن حادثة الفيل بعد أن ردّ الله الحبشة عن مكة خائبين ويذكر فيه الحنيفية دين ابراهيم عليه السّلام[٤٦] واليكم تلك الأبيات :

انّ آيات ربّنا ثاقبات ... لا يماري فيهنّ الاّ الكفور
خلق اللّيل والنّهار فكلّ ... مستبين حسابه مقدور
ثم يجلو النّهار ربّ رحيم ... بمهاة شعاعها منشور[٤٧]
حبس الفيل بالمغمّس حتّى ... ظلّ يحبو كأنّه معقور
لازماً حلقة الجرانِ كما قطّـ ... ـر من صخر كبكب محدور[٤٨]
حوله من ملوك كندة أبطا ... ل ملاويثُ في الحروب صقور[٤٩]
خلّفوه ثمّ ابذعرّوا جميعا ... كلّهم عظم ساقه مكسور[٥٠]
كلّ دين يوم القيامة عند اللّـ ... ـه الاّ دين الحنيفة[٥١] بور[٥٢]

فيما يلي قصيدة قالها أمية في التوحيد وخلق السموات والأرض ،

وأخبار الانبياء نسبها ابن اسحاق الى زيد بن عمرو ولكن أثبتها ابن هشام لأميّة[٥٣] الاّ أربعة أبيات منها أوردناها عندما تحدثنا عن زيد بن عمرو :

ألا أيّها الانسان إياك والردى فإنّك لا تخفي من الله خافيا
وايّاك لا تجعل مع الله غيره فإنّ سبيل الرشد أصبح باديا
رضيت بك اللهم رباً فلن أرى أدين إلاهاً غيرك الله ثانيا
أدين لربٌ يستجاب ولا أرى أدين لمن لا يسمع الدّهر داعيا[1]
وأنت الذي من فضل منّ ورحمة بعثتَ الى موسى رسولاً مناديا

ومن شعر أمية الذي يذكر فيه الحشر والحساب قوله[٥٤]

ويوم موعدهم أن يحشروا زمرا يوم التّغابن اذ لا ينفع الحذرُ
وأبرزوا بصعيدٍ مستوٍ جُرُزٍ وأنزل العرش والميزان والزُّبُرُ

وله قصيدة يصف بها الله وملائكته[٥٥] مطلعها .

لك الحمد والنّعماء والملك ربنا فلا شيء أعلى منك مجدا وأمجد

وبعد أن وصف العزة الإلاهية ومجلسها يصف الملائكة ، منهم حملة العرش وجبريل ، وميكال ، وحُرّاس السّماوات ـ بقوله :

ملائكة أقدامهم تحت عرشه بكفّيه لولا الله كَلّوا وأبلدوا[٥٦]
قيامٌ على الأقدام عانين تحته فرائصُهم من شدة الخوف ترعد
وسبطٌ صفوفٌ ينظرون قضاءه يُصيخون بالاسماع للوحي رُكّدُ
أمينٌ لوحي القدس جبريل فيهم وميكال ذو الرّوح القويّ المسدّد

[(1) هذا البيت زاده محققو سيرة ابن هشام على القصيدة ، نقلاً عن كتاب الأغاني . والبيت المذكور لورقة بن نوفل . انظر الأغاني ٣ : ١٢٥ ، سيرة ابن هشام ١ : ٢٤٣ ، ٢٤٧ ، ديوان امية بن ابي الصلت للدكتور عبد الحفيظ السطلي : ٥٣٧ ـ ٥٤٣ ، ٦٠٧ ـ ٦٠٩ / لجنة المجلة] .

وحُرّاس أبـــواب السّماوات دونهم قيامٌ عليهـا بـالمقـاليـد رصّـد

وفي شعر آخر له روي عن الأصمعي[٥٧] يمجّد الله ويذكر العرش :

مجّــدوا الله فهــو للمجــد أهــل ربنـــــا في السماء أمسى كبيرا
بـالبنـاء الأعلى الـذي سبـق النــا س وســوّى فــوق السّماء سَرِيرَا
شرجعــاً لا ينـــالـــه بصر العيـ ـنِ ترى دونـه الملائـكَ صُورا[٥٨]

ورُويت لأُميّة أبيات في الحكم قـالهـا في فراش موتـه[٥٩] يـذكر فيهـا حتميّة الموت وغائلة الدّهر :

كلّ عيش وإن تطـــــاول دهرا منتهى أمره الى أن يـــــــزولا
ليتني كنت قبـل مـا قـد بـدا لي في رؤوس الجبـال أرْعَى الـوعـولا
اجعل الموت نصب عينك واحـذر غـولـة الـدهر إنّ للـدهر غـولا

وان الأشعار التي تنسب الى أمية بن أبي الصلت كثيرة جدّا . ولكن يظهر أن كثيرا منهـا منحول . فيقـول كارلـو نـالينـو : « وعـدد الأبيـات المنسوبـة اليـه (اي الى أميّـة بن أبي الصلت) المتفرقـة في كتب إسلاميـة شتى يـزيـد على الاربعمائـة ، الاّ انـه لاشـكّ في كـون كثير منهـا مختلقـة لا سيّما المرويّة في كتـاب البـدء والتـاريخ لمطهّر بن طـاهر المقـدسي من علماء القرن الرّابع للهجرة فإنّها مملوءة عبارات وألفاظـا قرآنيّـة »[٦٠] وهـذا ما يقوله صاحب « كتاب شعراء النّصرانية » ايضا : « وقد أخبر صـاحب الأغاني عن أميّـة أمورا غريبـة وأنّـه كان يطمع في النّبوة وأنّ الجنّ كانت تطيعه وغير ذلك من الخوارق التي لم نر لتصديقها سبيلا »[٦١].

ومن عجب أن اميّـة بن أبي الصلت الـذي امتـلأ شعره ايمـانـا بـالله واستفاض توحيداً واعترافاً بالحساب والنشور قد مات بعد البعثة المحمديّـة

وقد أبى ان يؤمن بالاسلام ، بل وقف من الاسلام موقف المعارضة الصريحة كما تدلّ عليه أشعاره التي قالها بعد وقعة بدر يرثي فيها من قُتل فيها من المشركين ويحرّض قريشا على المسلمين[٦٢] . (ولا نورد هذه القصائد ها هنا لأنّها ليس لها علاقة بموضوع بحثنا) . ويعلّل بعض المؤرّخين عدم ايمانه بالنّبي ﷺ ودينه بأنّه كان قد قرأ في الكُتب أنّ نبيًّا يُبعث من العرب فكان يتمنّى أن يكون هو،نفسه ذلك النّبي ، ولما بُعث محمد ﷺ خاب رجاؤه فحسد النبيّ ﷺ ولم يؤمن به[٦٣] . وسواء كان يطمع في النبوة أم لا فقد ثبت تاريخيّا انّه لم يعتنق الاسلام بل عاداه معاداة شديدة . وغلب على ظنّ البعض انّه كان مسيحيا لأنّه كان لايزال يختلف إلى الأديرة والكنائس يجالس الرّهبان والقسيسين[٦٤] .

سويد بن عامر

ومن الذين تحنّفوا في الجاهليّة وعبدوا الله على ملّة ابراهيم رجل من بني المصطلق يقال له سويد بن عامر . وفيما يلي أبيات قالها في زوال الدّنيا والموت :[٦٥]

لاتأمننّ وان أمسيت في حرم ان المنايا بكفي كلّ انسان
واسلك طريقك تمشي غير مختشع حتّى يبين ما يمني لك الماني
فكلّ ذي صاحب يوما يفارقه وكلّ زادٍ وان أبقيته فاني
والخير والشّر مقرونان في قرن بكلّ ذلك يأتيك الجديدان

أبو قيس صرمة بن أبي أنس الأنصاري

ومن المتحنّفين في الجاهليّة أبو قيس صرمة بن أبي أنس بن صرمة من بني النجّار بالمدينة . وكان قد ترهّب في الجاهلية ، ولبس المسوح ،

وترك عبادة الأوثان وقال : « أعبد رب إبراهيم » . وهمّ مرّة بالمسيحيّة ثم امسك عن اعتناقها وما زال كذلك حتى قدم رسول الله ﷺ المدينة فأسلم وحسن إسلامه[٦٦] فقد رويت له أبيات قالها في تعظيم الله عزّوجلّ[٦٧] منها :

سبّحوا الله شرق كل صباح — طلعت شمسه وكلّ هلال[٦٨]
عالم السر والبيان لدينا — ليس ما قال ربّنا بضلال
وله الطير تستريد وتأوي — في وكور من آمنات الجبال[٦٩]
وله الوحش بالفلاة تراها — في حقاف وفي ظلال الرّمال
وله هوّدت يهود ودانت — كلّ دين اذا ذكرتَ عُضال[٧٠]
وله شمّس النصارى وقاموا — كلّ عيد لربّهم واحتفال[٧١]

ومن شعره الذي يذكر فيه تقوى الله والبرّ هذه الابيات[٧٢] :

فأوصيكم بالله والبرّ والتّقى — وأعراضكم والبرّ بالله أوّلُ
وإنْ قومكم سادوا فلا تحسدنّهم — وان كنتم اهل الرّياسة فاعدلوا
وان نزلت إحدى الدواهي بقومكم — فأنفسكم دُون العشيرة فاجعلوا
وان ناب غُرم فادح فارفقوهم — وما حمّلوكم في الملّمات فاحملوا
وان انتم أمْعَرْتُمْ فتعففوا — وان كان فضل الخير فيكم فأفْضِلوا[٧٣]

قيس بن نشبة

من جماعة المتحنفين قيس بن نشبة من بني سليم . وكان في الجاهليّة قد قرأ الكتب وينتظر النّبيّ المبعوث في العرب . ويدلّ على ذلك هذا البيت من الشعر الذي قاله حين وفد على رسول الله ﷺ وأسلم :[٧٤]

قد كنت آمله وأنظر دهره — فالله قدّر انّه يهديني
أعني ابن آمنة الأمين ومن به — أرجو السّلامة من عذاب الهونِ

سائر المتحنّفين

ومن المتحنفين في الجاهليّة أيضا وكيع بن سلمة الايادي ، وعُمير بن جندب الجُهني ، وعلاف بن شهاب التيمي ، والمتلمّس بن أمية الكناني ، وعبيد بن الأبرص الأسدي[٧٥] على أننا لم نقف على أشعار لهم نستدلّ بها على تحنفهم .

والى جانب هؤلاء المتحنّفين ، كان هناك بين العرب الجاهلين رجال لم يُدعِوا بهذا الاسم ولكنهم كانوا يكفّون عن كثير من المساوئ الأخلاقيّة السائدة في المجتمع الجاهلي ، وحرّموا الخمر والأزلام . ومنهم عبد المطّلب بن هاشم بن عبد مناف ، وشيبة بن ربيعة بن عبد شمس ، وأبو اميّة بن المغيرة ، والحارث بن عبيدة وعامر بن حِذْيَم الجمحي ، وعبد الله بن جدعان التيمي ، ومقيس بن قيس بن عدي السهمي ، وعثمان بن عفان بن أبي العاص بن اميّة ، والوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم[٧٦] .

نقد وردّ

من خلال أشعار المتحنفين التي بحثناها آنفا يتّضح لنا ملامح لظاهرة « التحنّف » التي كانت تشغل بعض النّفوس المستنيرة القلقة الطالبة للحقّ من عرب الجاهليّة .

ولكن هناك من يشكّون في صحّة الأشعار والأخبار التي تنسب الى المتحنفين ، بل يشكّون حتى في وجود جماعة تسمّى « بالمتحنفين » أوْ « الحُنَفَاء » ومنهم الدّكتور طه حسين فيقول . « ونحن نعتقد أن هذا الشعر الذي يضاف الى أميّة بن ابي الصلّت والى غيره من المتحنفين الذين

عاصروا النّبيّ أو جاؤوا قبله إنما نحل ، نحله المسلمون ليثبتوا كما قدمنا أن للاسلام قدمة وسابقة في البلاد العربيّة »[٧٧] . ولا نحتاج لردّ هذا الادّعاء إلى كلام طويل فنكتفي بأن نقول ان علمنا بنفسية الإنسان ، والمنطق وتاريخ الأمم وتجاربها تكذّبه وتدحضه . فليس من غير المعقول أن يُوجدَ بين العرب الجاهليين رجال ذوو نُفُوس حرة مستنيرة لم يرضوا عبادة الأوثان وغيرها من المساوئ الأخلاقيّة والعقائدية التي كانت شائعة في مجتمعهم فتشوّفوا إلى نظام حياة جديد عادل يقوم على عبادة الله وحده لا شريك له وأرادوا أن يلتمسوا ذلك في ملة ابراهيم التي سمعوا عنها كثيرا لكن لم يبق منها الاّ اسمها وذكرها في الجزيرة العربية . فليس من العجيب أن هؤلاء الذين التمسوا دين ابراهيم المندرس سمّوا أنفسهم أو سماهم الآخرون « بالحُنَفاء » (جمع « حَنِيف ») لأن ابراهيم عليه السلام سمّاه القرآن الكريم « حنيفا » ، ولعل هذه التّسمية كانت معروفة لعرب الجاهليّة . ولا نريد بهذا أن هؤلاء المتحنفين أدركوا حقيقة التوحيد كما جاء بها الاسلام فيما بعد . وانّما ادركوا صورة مبهمة لعقيدة التوحيد ، لأنهم كانوا يجتهدون بمجرّد عقولهم بدون هداية من كتاب إلّهيّ أو نبيّ مرسل من عند الله وفي الحقيقة انهم لم يحصلوا الاّ على لمحات من نور التوحيد من خلال الظلمات التي كانت تحيط بهم .

وتلك الومضات هي التي رأيناها تلمع من خلال أشعار المتحنفين التي قدّمنا ذكرها . فكيف ولِمَ نشكّ في صحّة تلك الأشعار ونحن نعرف أنّ ظاهرة التّحنّف ممكن وُجودُها وبالتّالي من الممكن أيضا أنّها اتخذت سبيلها الى الاشعار التي قالها اصحابها وقد ثبت أن اكثر من قدّمنا ذكرهم من المتحنفين كانوا معدودين من شعراء الجاهليّة البارزين .

على اننا لا ننكر أن قليلا او كثيرا من الأبيات المنسوبة إلى المتحنفين قد تكون منحولة أو مشكوكاً في صحّتها ، خصوصاً تلك الأبيات التي وردت فيها الألفاظ والتعابير القرآنيّة . ولكن هذا لا يجعل أشعار المتحنفين بجملتها مَوْضِع الشّكّ كما يزعم أمثال طه حسين .

الهوامش والمراجع

١) انظر مادّة « حنيف » في دائرة المعارف الاسلاميّة نقلها الى اللّغة العربيّة محمد ثابت الفندي والآخرون ، المجلد الثامن ، انتشارات جهان ، طهران انظر ايضا مادة HANIF في

DICTIONARY OF ISLAM by THOMAS PATRICK HUGHES, COSMOS PUBLI CATIONS, NEW DELHI, INDIA 1977.

٢) هو ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزّى بن قصي بن كلاب بن مرّة بن كعب بن لؤيّ .

٣) هو عبيد الله بن جحش بن رئاب بن يعمر بن صبرة بن مرّة بن كبير بن غَنْم بن دودان بن أسد بن خُزيمة . وكانت أمّه أُميةِ بنت عبد المطّلب .

٤) هو عثمان بن الحويرث بن أسد بن عبد العزّى بن قصيّ .

٥) هو زيد بن عمرو بن نفيل بن عبد العزّى بن عبد الله بن قُرْط بن رياح بن روّاح بن عديّ بن كعب بن لؤيّ .

٦) السيرة النّبويّة لابن هشام « حققها وشرحها مصطفى السّقا وابراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي » الجزء الأول ، الطبعة الثالثة ـ ١٣٩١ هـ ١٩٧١ م دار احياء التراث العربي ، بيروت ـ لبنان ، ص ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، كتاب المنّق في أخبار قريش لمحمد بن حبيب البغدادي طبع بمطبعة مجلس دائرة المعارف الاسلاميّة . بحيدراباد الدّكن الهند ، الطبعة الأولى سنة ١٣٨٤ هـ / ١٩٦٤ م ص ١٧٥ ، ١٧٦ ، [كتاب السير والمغازي لابن اسحاق / دمشق ١٩٧٨ م ، ص ١١٥ ـ ١١٦] .

٧) كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ، دار الكتب ـ مصر ج ٣ ص ١٢٠ ، كتاب نسب قريش لأبي عبد الله المصعب بن عبد الله بن المصعب الزّبيري ، نشره وصححه وعلّق عليه ا ـ ليفي . بروفنسال ، دار المعارف ١٩٥٣ ، ص ٢٠٧ [صحيح البخاري ١ : ٣ ، ٤ : ١٨٤ ، جمهرة نسب قريش للزبير بن بكار رقم ٧١٦] .

٨) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، البداية والنهاية لأبي الفداء الحافظ ابن كثير ، الطبعة الأولى ١٩٦٦ مكتبة المعارف بيروت ج ٢ ص ٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ج ٣ ص ١٠ ، [خزانة الأدب للبغدادي ٢ : ٣٩] .

٩) النشّيج . البكاء مع صوت .

١٠) « المكّتين » : لعله أراد به جانبي مكّة أوْ أعلى مكّة واسفلها .

١١) انظر تفضيل هذا الخبر في سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٩٩ .

١٢) تموج : تضطرب .

١٣) الفلوج : الظهور على الخصم والعدوّ .

١٤) عجّتْ : ارتفعت أصواتها .

١٥) راجع البداية والنّهاية ج ٢ ص ٢٩٧ ، [السير والمغازي لابن اسحاق : ١١٥ ، خزانة الأدب للبغدادي ٢ : ٤٠ ـ ٤١] .

١٦) تفاصيل هذا في سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٥٣ ـ ٢٥٤ .

١٧) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٤٠ .

١٨) كتاب الأغاني ج ٣ ص ١٢١ ، نسب قريش للمصعب ص ٢٠٧ ، ٢٠٨ . [جمهرة نسب قريش للزبير بن بكار رقم ٧١٨ ، الروض الانف ١ : ١٢٥ ، البداية والنهاية ٢ : ٢٩٧ ـ ٢٩٨ ، معجم البلدان (الجد) ، خزانة الأدب ٢ : ٣٧ ـ ٣٨] . لم يَرْوِ ابن هشام هذه الأبيات .

١٩) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٤٧ ، كتاب الأغاني ج ٣ ص ١٢٥ ، البداية والنّهاية ج ٢ ص ٢٣٨ ، ٢٤٣ ، [السير والمغازي لابن اسحاق : ١١٩] هناك اختلاف كبير بين هذه المصادر في رواية الشعر إلا في البيتين الاولين منه .

٢٠) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٣٨ ، كتاب المنّق ص ١٧٨ .

٢١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٣٩ .

٢٢) انظر في كتاب المنّق ص ١٧٨ ـ ١٨٥ .

٢٣) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٤٠ ، كتاب المنّق ص ١٧٧ .

٢٤) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٤٠ ، كتاب المنمق ص ١٧٧ .

٢٥) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٤٦ .

٢٦) كتاب المنمق ص ١٧٧ ، ١٧٨ ، سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٤٦ ـ ٢٤٧ ، كتاب الأغاني ج ٣ ص ١٢٧ .

٢٧) كتاب الأغاني ج ٣ ص ١٢٧ .

٢٨) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٤٠ ، كتاب الأغاني ج ٣ ص ١٢٧ ، [نسب قريش لمصعب : ٣٦٥] .

٢٩) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٤١ ـ ٢٤٢ . وراجع ايضا كتاب الأغاني ج ٣ ص ١٢٤ ـ ١٢٥ ، والبداية والنهاية ج ٢ ص ٢٤٢ ـ ٢٤٣ ونسب قريش ص ٣٦٤ ، ٣٦٥ [السير والمغازي لابن اسحاق : ١١٧] .

٣٠) ربل الطفل يربل (من بابي نصر وضرب) : اذا شبّ وعظم وكبر .

٣١) فتر الشيء يفتر (من بابي نصر وضرب) : سكن بعد حدّته ولان بعد شدّته وضعف .

٣٢) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٤٢ ـ ٢٤٤ ، البداية والنهاية ج ١ ص ٣٦ ، ٣٧ ، ج ٢ : ٢٤١ ـ ٢٤٢ .

٣٣) الرصين : الثابت المحكم . لاينى : لايفتر ولايضعف .

٣٤) حنانيك : اي : حنانا بعد حنان ، او حنانا في الدّنيا وحنانا في الآخرة .

٣٥) السيب : العطاء .

٣٦) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٤٦ ، كتاب الأغاني ج ٣ ص ١٢٨ ، البداية والنهاية ج ٢ ص ٢٤٢ ، [السير والمغازي لابن اسحاق : ١١٧] .

٣٧) طبقات الشعراء تأليف محمد بن سلاّم الجمحي بمطبعة بريل في مدينة ليدن سنة ١٩١٣ ، ص ٦٦ .

٣٨) كتاب الأغاني ج ٤ ص ١٢٢ .

٣٩) طبقات الشعراء لابن سلاّم ص ٦٦ .

٤٠) كتاب الأغاني ج ٤ ص ١٢١ .

٤١) انظر تاريخ آداب اللّغة العربية تأليف جرجي زيدان منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، الجزء الاولّ ص ١٣٢ .

٤٢) المرجع نفسه ص ١٣٣ .

٤٣) ويروى : « طبق الآفاق اشطانا » .

٤٤) ويروى : « من رأس مجرانا » .

٤٥) انظر كتاب الأغاني ج ٤ ص ١٢٩ ، ١٣٠ ، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب لمحمود شكري الألوسي ط الرّحمانيّة ج ٢ ص ٢٥٣ ، [ديوان أمية بن أبي الصلت للدكتور عبد الحفيظ السطلي : ٥١٦ ـ ٥٢١ ، ٦٠٥ ـ ٦٠٦] .

٤٦) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٦٢ [ديوان أمية بن أبي الصلت للدكتور عبد الحفيظ السطلي : ٣٩١ ـ ٣٩٣ ، ٥٧٣ ـ ٥٧٤] .

٤٧) المهاة : الشمس .

٤٨) الجران : الصّدر . وقطر : أي رمى به على جانبه . والقطر : الجانب . وكبكب : اسم جبل . والمحدور : الحجر الذي حدر حتّى بلغ الأرض ـ يشبه الفيل ببروكه ووقوعه الى الأرض بهذا الحجر الذي يتحدر من جبل كبكب .

٤٩) ملاويث : أشداء .

٥٠) ابذعرّوا : تفرّقوا .

٥١) يريد بالحنيفة : الأمّة الحنيفة : أي المسلمة التي على دين ابراهيم الحنيف .

٥٢) ويروى : « زور » .

٥٣) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٤٢ ، ٢٤٣ [البداية والنهاية ١ : ٣٦ ـ ٣٧ ، ديوان أمية بن أبي الصلت : ٥٣٧ ـ ٥٤٢ ، ٦٠٧ ـ ٦٠٩] .

٥٤) ديوان أميّة بن أبي الصلت ، نقلا عن الأدب في موكب الحضارة الاسلاميّة للدكتور مصطفى الشكعة ، مكتبة الأنجلو المصريّة ١٩٦٨ ، ص ٣٣ [ديوان أمية بن أبي الصلت للدكتور عبد الحفيظ السطلي : ٣٨٧ ـ ٣٩٠ ، ٥٧٣] .

٥٥) نقلا عن تاريخ آداب اللّغة العربية لجرجي زيدان ج ١ ص ١٣٣ ، [ديوان أمية بن أبي الصلت للدكتور عبد الحفيظ السطلي : ٣٦٧ ـ ٣٧٦ ، ٥٦٨] .

٥٦) وروي :

فمن حامل إحدى قوائم عرشه ولولا إله الخلق كلّوا وأبلدوا

انظر البداية والنّهاية ج ٢ ص ٢٢٩ .

٥٧) البداية والنهاية ج ٢ ص ٢٢٩ [ديوان أمية بن أبي الصلت : ٣٩٩ ـ ٤٠٧] .

٥٨) قال الأصمعي : الملائك ج ملك . والصُّور : جمع أصور وهو المائل العنق وهؤلاء حملة العرش . (البداية والنهاية ٢ : ٢٢٩) .

٥٩) كتاب الأغاني ج ٤ ص ١٣٢ ، وانظر أيضا البداية والنهاية ج ٢ ص ٢٢٦ ، [تهذيب تاريخ ابن عساكر ٣ : ١٢٦ ، ديوان أمية بن أبي الصلت : ٤٥٠ ـ ٤٥٢ ، ٥٨٨] .

٦٠) تاريخ الآداب العربيّة من الجاهلية حتّى عصر بني أميّة لكارلو نالينو ، دار المعارف بمصر ١٩٥٤ ، ص ٧٧ .

٦١) كتاب شعراء النصرانية للأب لويس شيخو اليسوعي ، طبع في مطبعة الآباء المرسلين اليسوعيّين في بيروت سنة ١٩٢٢ ، القسم الثاني ص ٢١٩ .

٦٢) انظر هذه القصائد في باب « ما قيل من الشعر في يوم بدر » في الجزء الثالث من سيرة ابن هشام .

٦٣) كتاب الأغاني ج ٤ ص ١٢٢ .

٦٤) تاريخ الادب لجرجي زيدان ج ١ ص ١٣٢ .

٦٥) نقلا عن الأدب في موكب الحضارة الاسلاميّة للدّكتور مصطفى الشكعة ص ٣٣ . [انظر الأبيات في العقد لابن عبد ربه ٥ : ٢٧٥ ، وأمالي السيد المرتضى ١ : ٣٦٨ ، وخزانةالأدب للبغدادي ٤ : ٥٣٧ ، ونسب الأول والثاني والرابع من الأبيات إلى أبي قلابة الهذلي (ديوان الهذليين ٣ : ٣٩) ، وانظر لسان العرب ـ مادة مني] .

٦٦) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ١٥٦ .

٦٧) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ١٥٧ ـ ١٥٨ ، [البداية والنهاية ٣ : ١٥٧ ، الروض الانف ٢ : ٢٢ ـ ٢٣] .

٦٨) الشرق هنا : طلوع الشمس ، أو الضوء .

٦٩) تستريد : تذهب وترجع . والوكور : جمع وكر ، وهو عش الطائر .

٧٠) هودت : أي ثابت ورجعت .

٧١) شمّس : تعبّد .

٧٢) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ١٥٧ . وأيضا في كتاب العقد الفريد لابن عبد ربّه الأندلسي ، الطبعة الثالثة ، دار الكتاب العربي ، بيروت ١٩٦٥ م ، ج ١ ص ٢٢٩ ، [البداية والنهاية ٣ : ١٥٧ ، الروض الانف ٢ : ٢٢] ، وفي العقد الفريد وردت الأبيات كما يلي :

فأوصيكم بالله اوّل وهلة وأحسابكم والبرّ بالله اول
وان قومكم سادوا فلا تحسدوهمُ وان كنتم أهل السيادة فاعدلوا
وان أنتم اعوزتم فتعففوا وان كان فضل المال فيكم فافضلوا

٧٣) أمْعَزْتُمْ : افتقرتم . ويُروى : أمْعَزْتم ، بالزّاي . وأمعزتم : اي اصابتكم شدّة .

٧٤) كتاب المنّق ص ١٦٦ .

٧٥) الادب في موكب الحضارة الاسلاميّة للدّكتور مصطفى الشكعة ص ٣٤ .

٧٦) كتاب المنّق ص ٥٣١ ، ٥٣٢ .

٧٧) في الأدب الجاهلي لطّه حسين « الطبعة العاشرة ١٩٦٩ » دار المعارف بمصر ، ص ١٤٥ .